حافظ ابراهيم

ناحية من أثره فى الأدب

حقاً لقد جلّت مصيبة مصر فى حافظ أديباً وكاتباً وشاعراً ، ومحاضراً ومفاكهاً ومنادراً . وحافظ فى هـذا كله حقيق من مؤرخى الأدب العربى بأن يعقدوا له الأبواب ، ويسبغوا الفصول . ولست أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدلّ على موضعه فى الأدب العربى ، وأثره بمنظومه ومنثوره فيه . فذلك شىء قد فرغ منه ، أو هو شىء لمّا يئن بعد الحديثُ فيه ، على ما يظهر . أما أنه قد فرغ منه فذلك بأن أديباً أو متأدباً فى العالم العربى لا يجهل حظ حافظ من هذا أو يقدره حق قدره . وأما أنه لم يئن بعد ، فلقد تظاهر صدر من صفوة العلماء والشعراء والكتاب على أن يدونوا فى حافظ ضخام الكتب يحصون فيها شعره ، ويستقرؤن نثره ، ويطلبون المأثور من كلمه ، وكل طريف من بدائهه فى مناقلاته ومنادراته ، وكلها حلو طريف ، وبعد أن شمر القوم فى هذا واجتمعوا له وجعل يستحثّ بعضهم بعضاً فيه ، طاف بهم أوبنا على الصحيح (فما أبرؤ نفسى) طائف من السكون والفتور ، والجمود والركود ، فما عدتَ تسمع من أحدٍ فيه حسّاً .

وأكبر الظن أن السبب فى هذا يرجع الى السياسة ، فاخواننا من السياسة فى شغل لقد صرفهم عن كثير ، حتى عن الوفاء بما اجتمعوا له واستحمسوا من خدمة الادب العربى فى ذكر حافظ ابراهيم !

وبعد ، فانما أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدلّ على ناحية واحدة مما أجدى به على الأدب العربى هذا الشاعر العظيم :

رُزق حافظ ، رحمه الله ، الى الطبع وإدراك الملكة ، خلالاً ثلاثاً لا تستوى لكثير : سلامة الذوق ورهافة الحسّ . والثانية قوة الحافظة . والثالثة نطاقة اللسان .

وكان حافظ رجلا يبهره حسن الصياغة ، ويأخذ فيه جمال التعبير ، فما يسقط فى قراءته فى فنون الشعر والنثر ، على لفظ شريف أوصيغة ناصحة مشرقة ، كمل بهاؤها وترقرق ماؤها ، الا تهافتت نفسه عليها وراح يلتهمها التهاماً ، وهى آخذة منه مأخذ أحلى الأصوات فى أدقّ الآذان .

ولقد قلت لك إن حافظاً كان قوى الحافظة ، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً .

ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم ، فلم نشهدهم ونلابسهم لأحلنا ما يروى عنه فى هذا على ما يتزيَّد به القصاص . ويسرفون فى المبالغة فيه طلباً للافلاق والاغراب.

ولقد كان ، رحمه الله ، يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير ، أو المقالة لكاتب مبرّز ، فاذا عيناه تجمزان فيها جمزا حتى يأتى على غايتها . ثم يطرح الصحيفة ، حتى ما تشك فى أنه إنما كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام ، بل بعد شهور ، بل بعد سنين طوال ، إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال ، فاذا حافظ يروى ، بظهر الغيب ، أنفر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والاسفاف !

على أننى شهدت أن حافظاً لم يكن يعلق بحافظته مما يقرأ إلا ما يستجيد ويستملح ، وأحياناً ما يستسخف ويستقبح إذا كان لبعض من يكرههم ويرتصّد لتشهيرهم والزراية عليهم .

والعجب أن الشائع فى الاعتقاد أن من كان سريع الحفظ كان سريع النسيان فاذا صحت هذه القضية فقد حقّ أن يستثنى عليها هذا حافظ ابراهيم !

وقبل أن أتحول عن هذا الموضع من الحديث أقول إن حافظاً قبض إلى رحمة ربه وليس فى داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغانى (طبعة بولاق القديمة) وكتاباً أو اثنين فى الفرنسية ، وأثارة من الأقاصيص (الروايات) العصرية المترجمة إلى العربية فى لهجة أدنى إلى العامية ، فلقد كلف دهراً بقراءة هذه الأقاصيص حتى إذا غادر داره دسّها فى (جيبه) ليقرأها كلما تهيأ له ذلك .

وتسألنى : كيف أنه على كثرة محصوله ووفرة محفوظه من بارع الشعر ورائع النثر لا يجمع من الكتب إلا ما أحصيتُ ؟ فأجيبك بأنه لم يدع ديواناً لشاعر متقدم إلا قرأه ، وكذلك قرأ كثيراً من كتب أعلام البيان ؛ على أنه ما فرغ من قراءة ديوان شعر أو كتاب تجول فيه ألوان البلاغات إلا خلاّه ودفعه عنه باهداء أو طرحه مطرحه حيث كان تغنياً بما أصاب منه وشكته حافظته العاتية . ولقد أذكر أنه من نحو اثنتى عشرة سنة دفع إلىّ كتاب (المكافأة) لأحمد بن يوسف الكاتب المصرى ، واستحثنى على قراءته وتقليب الذهن فيه تروّياً من ناصح بلاغته ، فقرأتُ الكتاب مرة بعد مرة ، وتعلقتْ بحافظتى منه كلمات وصيغ سرعان ما تخاذل أكثرها وتساقط عنها مسقط البقلة الذابلة . ثم إذا صاحبنا بعد السنين التوالى ينتظمه المجلس ،

فيروى القصة من الكتاب برمتها كما جرى بها قلم الكاتب ما تكاد تنشز عليه منها كلمة ، وخاصة ما أشرق لفظه ، وتبهجت ديباجته . وما شاء الله كان !

ولقد زعمتُ لك أن حافظاً كان نطقاً ذرب اللسان ، وكان الى هذا رجلا يألف ويؤلف فكان يطاب مجلسه المتأدبون ، وكان هو عظيم التفقد لمجالس الاسمار كثيرَ الاطلاع عليها فلا تراه قط الاجياشاً بلسانه فى المجلس ، يتنقل فى خفة وظرف ، بين جد القول وهزله ، وهو أثناء هذا وهذا ينبوع يفيض بالأدب فيضاً ، ويأبى إلا أن يدفع فى حديثه بأحلى ما وقع له من رائع الصيغ .

دعك مما أفاد حافظ نفسه فى هذا الباب ، فى شعره ونثره جميعاً ، وما أجدى به على من قرؤوه شاعراً ومن قرؤوه كاتباً ، فذلك مما يخرج عن حدود هذا الحديث . وإنما الذى اريد أن اقوله إن حافظاً ، رحمه الله ، كان مجلة ادبية حية متحركة يُفشى فصيح العربية حيث كان ، ويصلح للمتأدبين أخطاءهم البيانية ما وقعت له . وكثير من الشعراء لقد كانوا يعرضون عليه قصائدهم قبل ان يطلعوا بها على الناس فيثبت لهم المتجلجل ، ويقوى المنخذل ، ويرفع المسفّ ، ويذكى الخابى . فحافظ من هذه الناحية كان قوة قوية فى إشاعة فصيح العربية وإظهار المتأدبين على كرائم المحفوّات من ألوان بلاغاتها . فكان أثره واضحاً فيما نشهد اليوم من إشراق الديباجة ، وتلاحم النسج ، وفحولة الكلام . ولا يذهب عنك بعد هذا ان حافظاً قد استظهر صدراً صالحاً من الصيغ والتعبيرات الجميلة أدت فى صفاء وسلامة كثيراً من متخير المعانى التى جاءت بها الحضارة الحديثة .

وقبل ان أختم هذا الحديث اذكر عن حافظ خلة من خلاله إنصافاً للحق واثباتاً لصحيح التاريخ : ذلك بأنه مما انعم الله به عليه انه كان قليل الصبر على النظر فى كتب العلم والاجتماع فى حفظ قواعده والمطاولة فى تفهم قضاياه واستخراج مسائله . علوم اللغة وغيرها عنده فى هذا بمنزلة سواء ، بل لم يكن له صبر على مراجعة معاجم اللغة فيما يغم عليه من مفرداتها ، ولعل الامر إذا ذكرته فى بعض هذا تقدم الى غيره به فرجع اليه بما اصاب . اؤكد ان حافظاً قد ثوى وليس فى داره معجم واحد من معاجم اللغة . ولكن لقد تهيأت للرجل فرصة لم تتهيأ لكثير ، فقد عاشر من اول شباب السن الى غاية العمر اعلام العلم واللغة والادب فى عصره ، وداخلهم ولابسهم وحضر مجالسهم وحاضرهم ونادرهم وأخذ عنهم . فاتسقت له بهذا مجموعة

قيمة من علوم اللسان وسواها من قضايا الدين وعلوم الحياة. وناهيك بمن طوى العمر كله فى مصاحبة الشيخ محمد عبده والأشياخ حمزة فتح الله، وابراهيم البازجى، ومحمد المهدى، وحفنى بك ناصف، وسامى باشا البارودى، واسماعيل باشا صبرى، وسعد باشا زغلول، وأخيه فتحى باشا، وأحمد حشمت باشا، وابراهيم بك المويلحى، وولده محمد بك، وعمه عبد السلام باشا، وابراهيم بك اللقانى، والشيخ على يوسف، وأستاذنا احمد لطفى السيد بك، وعبد الحميد بدوى باشا، واحمد بك أمين، والمرحوم عبد الحميد باشا مصطفى، وأستاذنا العظيم الشيخ احمد بك ابراهيم، وأصدقائنا الدكتورين هيكل وطه حسين والاستاذ الجليل خليل مطران وغيرهم، وسواهم من كل مَن يجرى فى أبواب العلم والأدب على عرق كريم، حتى وهو ضابط فى السودان، لقد لازم استاذنا العلامة المرحوم الشيخ الخضرى بك، وراجعه كثيراً، وتروّى عنه فى قوانين اللغة كثيراً، ولعله كذلك قد اتصل هنالك بأستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار وأخذ عنه وذلك مما لا أتبينه إلى الآن.

ولعله قد تعاظمك بادىء الرأى ما زعمت فى بعض هذ الكلام من أن مما انعم الله به على حافظ رقة الصبر على الاكباب على كتب العلم، وفيها علوم اللسان ولعله لو قد فعل لما كان منه كلٌّ حافظ إبراهيم!

حافظ إنما طلب العلم فى أصفى موارده، وحصله من أكرم مناجمه. وانت خبير بأن العلماء إذا أقبلوا فى اعمارهم على مذاكرة العلم، تخيروا اللب والمصاص، واصطفوا من مسائله ما جلّ معناه وقويت اسبابه، وخاصة ما اتصل منها بوسائل الحياة، واطّرحوا ما لا غناء فيه مما يكظ الذهن ولا يكاد يجدى فى تطبيق قضاياه الكثيرة، وقواعده الوفيرة فى دنيا ولا فى دين. وحافظ كان رجلاً متسعّر الذكاء، صافى الذهن، جوهرىّ الطبع، قوى الحافظة، كما أسلفت عليك، فأصاب مع هذا من صحبة من ذكرت من اولئك العلماء، وطول مذاكرتهم ومراجعتهم من الفوائد العلمية فى شتى العلوم ما لا يكاد يدركه الحساب.

وإن تعجب فعجب اننى ارى ان عدم إكباب حافظ على مراجعة معاجم اللغة قد أجدى عليه فى صنعته كثيراً! ذلك بأنه — وأرجو ان يعى هذا الناشئون فى الادب بوجه خاص — ذلك بأنه ليس كل كلمة فى المعجم تصلح للاستعمال دائماً فى المعنى الذى وجهها عليه، فان الكلمة قد تصلح فى هذا المقام ولا تصلح لذاك،

وقد تتسق لهذه الصيغة وتحلو وترقّ ، إذ هى تنشز على تلك وتَستصعِب .

لهذا آثر حافظ أوشاء له القدر ألا يأخذ مفردات اللغة الا من أكرم مناجمها ، وألاّ يطالعها إلا وهى فى عقود نظامها ، فيما حصل من رائع الشعر ، وما استظهر من فائق النثر ، فعرف فى شعره ونثره كليهما ، كيف يضع كل كلمة فى موضعها ، وكيف يضم الجنس الى جنسه ، ويضيف الشكل الى شكله. ومهما اختلف النقدة فى شعر حافظ وفى شاعريته فانهم لم يفترقوا قط فى أنه كان أمهر الصاغة فى هذا الزمان .

وخلة أخرى تتصل بهذا المعنى ، وهى أن بعض الشعراء إذا أعوزتهم القافية فزعوا الى المعاجم حتى إذا سقطوا عليها استكرهوها على النظم فخرجت ، فى الغالب، غريبة شامسة ، أو قلقة نابية . أما حافظ فقد سلم من هذا ، وإنك ما تكاد تطالع صدر بيته حتى تراك قد أطللتَ من نفسك على القافية .

* * *

هذه ناحية من جدوى حافظ إبراهيم على اللغة والأدب . أسأل الله تعالى أن يرحمه الرحمة الواسعة ، وان يعوض الادب العربى عنه خير العِوض ؟

عبد العزيز البشرى

حافظ ابراهيم

بين ظرفه ومجونه

وماذا أقول عن حافظ ابراهيم ، وأى جانب من جوانبه أتناول بالنقد والبحث والتمحيص ؟

إنما أود أن أمرّ فى هذه العجالة على ناحية مع نواحيه البارزة الممتازة التى أتيح لى أثناء اتصالى به ردحاً من الزمن أن أتبينها وأعجب بها : تلك هى روحه الفكهة الطروبة ، بل نفسه المَرِحة الضاحكة ، بل قلبه العامر بالظرف والايمان مما كان يبدو فى نظر بعض الناس استهتاراً وقلة اكتراث .

أتحدث فى هذه الكلمة القصيرة عن ظرف حافظ ، ومجون حافظ ، وخفة حافظ ، وكرم أخلاق حافظ ، بل سعة نفسه إلى أبعد مدى وأقصى حدّ .